مركز سلف للبحوث والدراسات
www.salafcenter.com

نصوص مختارة

تصدير سِجل مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريِّين (٩)

للشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

(28)

SALALFCENTER
salafcenter3@gmail.com

تصدير سِجلّ مؤتمر جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين

للشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

(٩)

[مواقف جمعية العلماء]

موقف جمعية العلماء المسلمين من الطرق:

مبدأ جمعية العلماء المسلمين هو الإصلاح الديني بأوسعِ معانيه، الذي كان يعمَل له المصلحون فرادى، وإنما كانوا مسَيَّرين بفكرة لا تستند على نظامٍ، فأصبحوا مسيَّرين بتلك الفكرة نفسِها مستندةً على نظام مقرَّرٍ وبرنامج محرَّر.

وقد كان حالُ المصلِحين مع الطرُق ما علِمه القارئ من الفصول السَّابقة، فلما تأسَّست جمعية العلماء لم يزيدوا على تلك الحالِ ولم ينقُصوا منها؛ لأن هؤلاء المصلحين لا يعملون –مسالمين ومحاربين– إلّا عن إيمانٍ وعقيدة، وعقيدتُهم في الطرق هي أنها علَّة العلل في الإفساد ومنبعِ الشرور، وأن كل ما هو متفَشٍّ في الأمَّة من ابتداعٍ في الدين وضلال في العقيدة وجهل بكلِّ شيءٍ وغفلة عن الحياة وإلحاد في الناشئة فمنشؤُه من الطرق، ومرجعُه إليها، كما علمتَ بعضَ ذلك من فصلِ آثار الطرق السيِّئة، وستعلم بعضَه.

فلا يجهلنَّ جاهل، ولا يقولَنَّ قائل: إنَّ المصلحين شغَلوا أوقاتهم بالطرق، واستنفدوا قوتهم في مقاومتها؛ حتى ألهتهم عن كلِّ شيء، وربما كان فيما شُغِلوا عنه ما هو أحقُّ بالاهتمام مما شُغِلوا به، وهذه نقطةٌ يجب إيضاحُها دفعًا للأوهام.

إنَّنا علمنا حقَّ العلم –بعد التروّي والتثبُّت ودراسة أحوال الأمة ومناشئِ أمراضها– أنَّ هذه الطرقَ المبتدعةَ في الإسلام هي سببُ تفرُّق المسلمين، لا يستطيع عاقلٌ سلِم منها ولم يبتَل بأوهامها أن يكابر في هذا أو يدفَعَه، وعلِمنا أنها هي السبب الأكبَر في ضلالهم في الدّين والدّنيا، ونعلَم أن آثارها تختلِف في القوّة والضعفِ اختلافًا يسيرًا باختلاف الأقطار، ونعلَم أنها أظهرُ آثارًا وأعراضًا وأشنَع صورًا ومظاهر في

هذا القطر الجزائريّ والأقطار المرتبطة به ارتباطَ الجوار القريبِ منها في غيره؛ لأنها في هذه الأقطار فروعٌ بعضها من بعض، ونعلم أنَّنا حين نقاومها نقاوِم كلَّ شر، وأننا حين نقضي عليها -إن شاء الله- نقضي على كلِّ باطل ومنكَر وضلال، ونعلم زيادةً على ذلك أنه لا يتمُّ في الأمَّة الجزائرية إصلاحٌ في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقيَّة المشؤومة، ومع ما لها من سلطانٍ على الأرواح والأبدان، ومع ما فيها من إفساد للعقول وقتل للمواهب.

إنَّ كاتب هذه الأسطرِ قدِّر له أن يقيمَ في الحجاز سنواتٍ عديدة في العهد العثمانيّ، والحجاز معرَض الأمَم الإسلامية، فرأى أنَّ هذه الطرقَ لم تسلَم منها بقعةٌ من بقاع الإسلام، ورأى أنها تختلِف في التعاليم والرسوم والمظاهر كثيرًا، ولا تختلف في الآثار النفسيَّة إلّا قليلًا، وتجتمع كلُّها في نقطةٍ واحدة وهي: التخدير والإلهاء عن الدِّين والدنيا.

ولقد -والله- كنت أرى المسلمين المختلفِي الأقطار والأجناس واللّغات يجتمعون في حرمِ رسول الله وفي مهبط الوحي الجامع، فلا أجِد بينهم ذلك الأنسَ الذي كان يجِده المسلمُ حين يلتقي بالمسلم، ولا أقرأ في وجوههم تلك البشاشةَ التي كانت تسابِق الألسنةَ إلى التحيَّة، فلا أعلِّل تلك الظاهرةَ الجافية بتباعد الديار؛ إذ لو كان الشعور بالأخوَّة صادقًا صحيحًا لكان بُعدُ الدار أدعَى إلى الشوق والحنين في الغَيب، وإلى كرم اللقاء وبشاشة الوجه في المشهَد، ولا أعلِّله باختلاف اللغاتِ؛ لأن النفوسَ والوجوه والأسارير لا تحتاج إلى ترجمان، ولكني كنت أعلِّل هذا اللقاءَ العابسَ بما أحدَثته فينا المفرقات الروحية -وهي الطرُق والمذاهب- من تنافرٍ عَظُمَ على الزمانِ حتى جعَل الإخوة أعداءً.

وكم كنت أمتعَّض حين أرى الحنفيَّ لا يصلِّي خلفَ الشافعيّ، والشافعيَّ لا يصلِّي خلفَ المالكيّ! بل كنت أمتعَّض لتعدُّد الأئمَّة من أصلِه، ولتعدُّد الحِلق الطرقيَّة التي لا تجمَع الناس لمدارسة عِلم، وإنما تجمَعهم لتحكيم وَهم، وأقول في نفسي: إذا لم تجتمِع قلوبنا في حرم رسول الله على دين الله، فهل ينفعُنا اجتماعُ الأبدان؟!

ونعود إلى موضوعنا فنقول: إنَّ جمعية العلماءِ لم تُنفق أوقاتها كلَّها، ولم توجِّه قواتها بأجمعها إلى هذه الجهة فقط كما يتوهَّم بعضُ الواهمين، بل إنَّ للجمعيَّة برنامجًا إصلاحيًّا عمليًّا حكيمًا، وهي موزِّعةٌ أعمالها على فصولِه، معطيَةٌ كلَّ فصل ما يستحقُّه، واقفةٌ في كلِّ عمل عند ما يتهيَّأ لها من وسائله، ويتيسَّر من

أسبابه، ولو لم يتجهَّم لها الزمن، ولم تصادمها العقبات المتنوّعة، ولم تقف في وجهها العوائق المتكرّرة، لسارت في جميع فروعِ الإصلاح التي يشملها برنامجها سيرًا حثيثًا، ولكنها تحمد الله على تلك المكارهِ التي شدَّدت من عزائمها، وسدَّدت من خُطاها، وكمَّلت من حنكتها، وزادتها ثباتًا في الحقِّ أضعافَ ما تحمده على المحابّ التي تسرُّ وقد تغرُّ.

موقف الجمعية في التعليم:

موقفُ الجمعيَّة في التعليم العربي والدِّيني هو أبرز مواقِفها، فقد كان التعليمُ العربيُّ الحرُّ يدور في دائرة ضيّقة من أمكنتِه وأساليبه وكُتُبه، فسَعَت الجمعية بما استطاعَت من أسبابٍ أن توسِّع دائرةَ الأمكنة بإحداث مكاتبَ حرةٍ للتعليم المكتبي للصِّغار، وبتنظيم دروسٍ في الوعظ والإرشاد الدِّيني في المساجد، وبتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامَّة في النوادي، وصحِبها توفيقُ الله تعالى، فنجحت مساعيها في هذا البابِ نجاحًا عظيمًا، وأثمرت أعمالُها إثمارًا نافعًا، ولولا موانِع من الأحكام الإداريَّة الجائرة في غَلق بعض المكاتب، والتضييق في إعطاء الرُّخَص، وإيصاد المساجِد في وجوه الوعَّاظ؛ لكانت النتيجةُ اليوم مما تغتبِط به الجمعية العامِلة المخلِصة، وتغتبط به الأمَّة المتعطِّشة المقبلة، وتغتبط به الحكومة التي يجِب أن تحكم على الأشياء بنتائجِها، وإن كانت حكومتنا إلى الآن –مع الأسف– تتجاهَل هذه النتائجَ، أو ترتاب فيها، أو تتصوَّرها على خلافِ ما هي عليه.

كذلك سعت الجمعيَّة إلى إصلاح أساليب التعليم، فقضَت في تعليمها بقِسمَيه –المكتبي والمسجديّ– على تلك الأساليبِ العتيقةِ العقيمةِ التي كان يباشَر بها التعليم، والتي ما زالت مثارًا للشَّكوى والتذمُّر في مكاتب التعليم ومعاهد العلم بغير الجزائر، ولم تستطع تلك المكاتب والمعاهد التخلُّص منها مع ظهور فسادها.

أمَّا في المساجد فطريقة الجمعيَّة في الوعظ والتذكير هي طريقة السَّلَف، تُذكِّر بكتاب الله تَشرحه وتستجدِي عبرهَ، وبالصحيح من سنّة رسول الله تبيِّنها وتنشرها، وبسيرته العمليَّة تجلوها وتدلُّ الناس على مواضع التأسِّي منها، ثم سير الصحابة وهديهم، ثم سير حمَلَة السنة النبوية، وحملة الهدي المحمديّ في أقوالهم وأعمالهم كذلك.

وأسلوبُ الجمعيَّة في التعليم الدينيّ في المساجد على إطلاقهِ: العنايةُ بالمعنى، والنفوذ إلى صميمه من أقرب طريقٍ يؤدِّي إليه، وتجليتُه للسامعين بالصوَر العملية التطبيقيَّة، والإعراضُ عن اللفظيات والخلافات وكلِّ ما يشوِّش أو يُبعِد عن تصوُّر المعنى المقصود.

وأمَّا التعليم المكتبيّ فأسلوبُ الجمعيَّة في تلقين العربيَّة هو أحدُ مفاخِرها، فهي تعهَد إلى الأساتذة الذين هم لنَظَرِها بتلقينِ التلامذةِ أبسطَ القواعد في أسهلِ التراكيب، ثم تمكينها من نفوسِهم بالتمرينات التطبيقية، والحرص على إشرابهم معنى ما يقرؤون، والاجتهاد في تربية مَلَكَة الذَّوق والاستنتاج في نفوسهم، وفي إصلاح اللهجات التي حرَّفتها العامِّيَّة عن سبيلها العربيّ، وتقويم اللسان على الحروف وهيأتها ومخارجها، والتشجيع على التكلُّم أمام الناس بما يملِيه الخاطر من غير اعتمادٍ على وحيٍ معلِّم أو كتاب، واقتلاع تلك العادة السيّئة التي كانت سائدةً في المكاتب، عريقة في الأوضاع المنزلية، وهي عادة الهيبَة والحصر.

وللجمعية -بحَمْدِ الله- في هذا البابِ أساتذةٌ لا يقصُرون عن كمال، ولا يُدفَعون عن أوَّليَّة.

وقد ظهرت نتائج هذا التعليم جليَّةً في كلِّ تلميذ قرأ في المكاتب التي لنظر الجمعية ولو مدَّةً قليلة، فاستقامتِ الألسنة، وصحَّت اللَّهجات، وبدأت ملَكة الخطابَة تنطبع في بعض البلابل البشريَّة، ويرجى أن يكون لهذا المبدأ الحسن ختامٌ أحسَن منه.

ويدخل في بابِ التعليم المكتبيّ قراءةُ القرآن، فالجمعيَّة تعطيه جزءًا من اهتمامها، وكيف لا تهتم بالقرآن وهو سلاحها الذي به تناضِل، وسيفُها الذي به تصول، وعدَّتها في الشدَّة، وعلى الدَّعوة إليه بنت مبدأَها الإصلاحيَّ، وفي الدعوة إليه لقيت الأذى ورميت بالعظائم؟!

إن جمعيةَ العلماء على ما خدَمت به القرآن من تبيين حقائقِه للناس، ونشر فضائله بينهم، وتحبيبه إلى نفوسهم، وشرح مزاياه فيهم، وجعله أساسًا في التذكير والوعظ، على كلِّ ذلك تتمنَّى لو تتفسَّح أمامها السبُل، ويخفُّ عنها ما تلاقيه في طريقها من معاكسةِ الطرقيِّين وأذنابهم، وإعنات الحكومة وعمّالها؛ لتقوم كلَّ القيام بما يجب عليها للقرآن من حقٍّ، فتنشئ من أبناءِ الأمَّة جيلًا قرآنيًّا يتقِن حفظَ القرآن وأداءَه، ويحسِن فهمَه والعملَ به ويتخلَّق بأخلاقه ويتربَّى على هديِه، ثم ينشر بواسطته دينَ الله في أرض الله.

ومِن فروع التعليم المكتبيّ تعليم الأمِّيِّين من الكبار مقدارَ ما يرفع الأمِّيَّةَ عنهم، وهذا الفرعُ من أهمِّ فروع التعليم في نظرِ الجمعية، ولها فيه الأمَل الفسيحُ، وإذا كانت أعمالها فيه لحدِّ الآن قليلةً ومساعيها ضئيلةً، فإن مقاصدَها في محاربة الأمية جليلةٌ، ومتى تمَّ استعدادها لهذه المسألة من تعميمِ الشُّعَب وتيسُّر المال، فإنها ستشنُّ على الأمِّيَّة غارة شعواء، وستبلغ منها ما تريد إن شاء الله.

وأما المحاضرات التهذيبيَّة فأسلوب الجمعيَّة فيها أسلوبُ الخطابيَّات المؤثِّرة في العقول، الحافزة للنفوس، المنبِّهة للمشاعر على طريقة الترغيب والترهيب.

وللجمعية –من فضل الله– ألسنةٌ سيَّالة، ومحاضرون قد بلَغوا الغايَة فصاحةً ورباطةَ جأش، ونصاعةَ لفظ، وتفنُّنًا في المواضيع، وملكًا لها، ومتانةَ إلقاء.

* * *

هذا شأنها في إصلاحِ الأسلوب، وأمَّا إصلاح الكتب فإن عمدةَ الجمعية في التذكير على كتاب الله وحديثِ نبيِّه عليه الصلاة والسلام، ومدرِّسوها ما منهم إلّا من له في العلم مقامٌ معلوم، وهم يلتزمون في تذكيرهم الأحاديثَ التي صحَّت أسانيدها ومُتونها، ودواوينُ الحديث الصحيحةُ المعتمَدَة موجودة متوافرةٌ، فلا عناءَ في هذا الباب. ومِن بركات جمعية العلماء على هذا القطر أنَّ أمهات التفسير الموثوق بها وكتبَ الحديث الصحيحةَ راجَت بين الناس، وعمَرت الخزائن، واكتسَحت تلك الكتبَ التي ضلَّلت الناس وقتلت مشاعرهم، وإن الأحاديث الصحيحةَ بدأت تُتَداول على الألسنةِ، وتُتَناول في المجالس، وتُرصِّع أحاديثَ الناس في مواطن الاستدلال، وإنَّ رواية الحديث بَدأت تنتعِش.

أمَّا الدروسُ الأخرى فإنَّ الجمعيَّة تختار لها من الكتب ما هو أقربُ إلى الإفادة، وأعَون على تحصيل المَلَكَة العلميَّة، وتجتنِب الكتبَ الجامدةَ المعقَّدة التي لا تفتق ذهنًا، ولا تبعث في نفسِ الدَّارس نشاطًا، وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتبَ الحيَّة السَّهلة، وليس هذا محلَّ تفصيلِ القول في الكتُب، وما لها من أثرٍ في نفس الدارس والمطالع، وما لها من دخلٍ في نتائج التعليم، وإنَّ ميدانَ القول فيها وفي صالحها وفاسدها لفسيحٌ، وإن في رجال الجمعية البارزين لَمَن هو من أهلِ الاختصاص في هذا الباب.

إن جمعية العلماء تبُثُّ في أساتذتها وتلامذتها وجميعِ أعضائها والمتعلِّمين على طريقتها روحَ المطالعة النافعة، والبحث العلميّ السَّديد، وترشدُهم إلى كيفيَّة المطالعة وطرائق البحثِ في التاريخ والاجتماع والأدب والرجالِ والكتب، وإذا كان المتأهِّلون لهذه المباحث الآنَ تصدُّهم عنها شواغلُ الدروس وغيرها، فإن النهضة الجزائريَّة العلميَّة التي كوَّنتها جمعية العلماء والحركة الفكرية التي غذَّتها ستتمخَّضان بناشِئة تساهم في الأبحاث العلميَّة إن شاء الله مساهمةً قيِّمة.

موقف جمعية العلماء في البِدَع والمنكرات العامَّة:

وقفَت جمعيَّة العلماءِ المسلمين من البدَع العامَّة والشعائر المستحدَثة –كبدع المساجدِ، وبدع الجنائز، وبدع المقابِر، وبدع الحجّ، وبدع الاستسقاء، وبدع النّذور– كما وقفت من بدعِ الطُّرق وضلالات الطرق، وقفةَ المنكرِ المشتدِّ الذي لا يخشَى في الحقِّ لومةَ لائم، في وقتٍ استحكمَت فيه هذه البدعُ حتى أصبحت دينًا مستقرًّا وعقيدة راسخة، فغيَّرت بالقول، وأغارَت بالفعل، وبيَّنت بالدليل، وقارعت بالحجَّة، وطبَّقت بالعمل، وكان في أعمال أعضائها أسوَةٌ حسنة للناس، وشعارها في هذا الباب أنَّ كلَّ محدثةٍ في الدين بدعةٌ، وكلّ بدعة ضلالةٌ.

وقد أقر الله عينَها بإماتة بدعٍ كثيرة، وإحياء سنن كثيرة، وإنها لترجو –بمعونة الله– أن تقضيَ على البقية الباقيةِ من البدعِ، برغم صراخِ المبطلين وعويل المستغلِّين، وفَّقها الله وسدَّد خطاها.

موقف الجمعية من الإلحاد:

الإلحادُ ضيفٌ ثقيلٌ حلَّ بهذا القطر منذ انتشرَت بين أبنائه الثقافةُ الأوروبيَّة من طريق التعليم اللَّادينيّ، أو من طريق التقليد الأعمَى، وغذَّته غفلةُ الآباء والأولياء عن هذه الناحيَة الضعيفةِ من أبنائهم.

ذلك أنَّ الناشئ الذي يتلقَّى التعليمَ في هذه المدارس اللائكيَّة يحسُّ من أوَّل أيَّامه في التعليم بمنافرة ما يتعلَّمه في المدارس من حقائق الكون مثلًا لِمَا تعوَّد سماعَه من أَهلِيهِ، ثم يزدادُ ما يسمَعه في المدارس رسوخًا في نفسِه بما يقام عليه من الدلائل، فيزدادُ على قدرِ ذلك نفورًا من كلِّ ما يسمعه من أَهليه، ثم ينقلب ذلك النفورُ منهم ومما يسمَعه منهم احتقارًا لهم وله، ولكلِّ ما يلابسهم من عوائدَ وأزياء، حتى ينتهي به الأمرُ إلى الدِّين؛ إذ يجد أَبويه وأقاربَه لا يعرفون منه إلّا قشورًا ممزوجَةً بالخرافات، ثمَّ هم لم يُنشئُوه على

احترامِ الدِّين، ولم يُشربوه حبَّه من الصِّغر، ولم يروِّضوه على إقامة شعائِره، فإذا تمادَت به مراحلُ التعليم وهو على هذه الحالة شبَّ على الوحشةِ من قومِه ولغتهِ ودينِه، وملَك الإلحاد عليه أمرَه إلّا من رحِم ربُّك، وهذه عاقبةٌ طبيعيَّة للإهمال المتفشِّي في مثل الأوساط الجزائريَّة، فإنَّ كثيرًا من الآباء يطلِقون لأبنائهم الحبل على الغارب، ولا يحوطونهم بالرِّعاية اللازمة لحماية دينهم وأخلاقهم وقوميَّتهم، بل يكِلونهم إلى عاداتٍ فاسدة ومؤثِّرات ضعيفة لا تقوَى على مقاومَة ما يجدّ على مشاعِرهم ويغزو عقولَهم كلَّ يوم من مؤثِّرات قويَّة جذَّابة مسلَّحة بالدليل.

على أنَّ مِن فضل الله على الجزائرِ أنَّ الإلحاد لم يتسرَّب إلى عقولِ أبنائها المتعلِّمين إلّا بنسبةٍ ضئيلة، والسرُّ في ذلك يرجِع من جهةٍ إلى تصلُّب الجزائري في دينه وإن كان جاهلًا به، ومن جهةٍ أخرى إلى سياسةِ الميز الخاطِئة التي يشهَد المتعلِّم آثارها حتى في التعليم وصفوفِ التعليم.

وقد كان لجمعيَّة العلماء الآثارُ المحمودة في مقاومَة الإلحاد بما يبثُّه رجالها من حقائقِ الدين، وبما يشرَحونه في دروسهم ومحاضراتهم من مطابقتِه للعَقل واتِّفاقه مع قضايا العلم ومسايرته للحياة المدنية، وبما أرشَدوا إليه الآباءَ من رعايةِ الأبناءِ والظهور أمامهم بمظهر القدوة الصالحه في الدين والخير والفضيلة.

وإنَّ من الأسباب التي مكَّنت للإلحاد في نفوس الشُّبَّان المتعلِّمين مُجانبَة علماءِ الدين الجامدين لهم ونفورهم مِنهم، وهي عادةٌ ما يزال يتَّسم بها هذا الصنفُ من العلماء إلى الآن، وبهذه العادَة السيئةِ كادوا يضيِّعون على الأمَّة طائفةً من أبنائها هم ذُخرُها للمستقبل وعدَّتها للشدَّة، ولكن رجال جمعية العلماء يعلمون أنَّ هذه الطائفةَ المعرَّضة للإلحاد هي زهرةُ الأمة، وأنَّها جديرة بكلِّ عناية واهتمام، وأنها –وإن لم تسلم طائف الإلحاد– سالمةٌ من الجمود والتَّخريف، وأنها أقربُ إلى الإصلاح والرجوع إلى الحقِّ بما معها من إدراك صحيحٍ، وبما فيها من ملكاتِ الاستدلال؛ لذلك مازجوا هذه الطائفةَ وخلطوها بأنفسهم، وعرفوا كيف يجذبونها إلى المحاضرات والدروس الدينيَّة، فكان لهذه الطريقةِ الرشيدةِ أثرُها الصالح في تقويم زيغ الزائغين منها، وإرجاعهم إلى حظيرة الدين بكلِّ سهولة، ونتجَت عن ذلك نتيجَة أخرى وهي تحبيبُ هذه الطائفةِ في اللّغة العربية، حتى أصبح الكثيرُ منها معنيًّا بها، نادمًا على ما فرَّط في جنبها، متداركًا بقدر الإمكان ما فاته منها.

إنَّ هذا الجهدَ الذي تجهده جمعيَّة العلماء في مقاومة الإلحاد هو غايةُ الممكِن في هذا الباب، أما الدواءُ الذي يجتثُّ هذه العلَّةَ من أصلها فهو قيامُ الآباء بواجِبهم من التربية الدينية الصحيحة، وما دام أبناؤنا يأوون إلى بيوتٍ قواعدها الجهلُ والخرافات، وقعائدُها الجاهلات الخرافيَّات، فنحن بين حالَين لا ندري أيّهما شر: الأمية ومعها التخريفُ، أو القراءة ومعها الإلحاد.

وإنك لا تبعدُ إذا قلتَ: إن لفشوّ الخرافاتِ وأضاليل الطرقِ بين الأمة أثرًا كبيرًا في فشوِّ الإلحاد بين أبنائها المتعلِّمين تعلُّمًا أوروبيًّا، الجاهلين بحقائق دينهم؛ لأنهم يحمِلون من الصِّغر فكرةَ أنَّ هذه الأضاليلَ الطرقيَّة هي الدين، وأن أهلَها هم حملةُ الدين، فإذا تقدَّم بهم العلمُ والعقلُ لم يستسغها منهم علمٌ ولا عقل، فأنكَروها حقًّا وعدلًا، وأنكروا معها الدِّين ظلمًا وجهلًا، وهذه إحدَى جنايات الطرقيَّة على الدين.

أرأيت أنَّ القضاء على الطرقيَّة قضاءٌ على الإلحاد في بعض معانيه وحسمٌ لبعض أسبابه؟!

وقد قرأتُ في هذه الأيام لكاتبٍ تونسيٍّ مقالًا يَنْعَى فيه على جمعيَّة العلماء إهمالَها لهذه الجهة من جهاتِ الفساد وهي جهة الإلحاد، واعتذَر عن علماءِ جامع الزيتونة بأنهم –وإن قعدوا في نواحي الإصلاح التي تخبّ فيها جمعية العلماء وتضع– قاموا في حربِ الإلحاد بما شكَرهم عليه، ولكنَّه حصَر عمَلهم في هذا السبيل في خطَبٍ جُمَعيَّة يندِّدون فيها بالإلحاد ويحذِّرونه.

وفات هذا الكاتبَ الفاضلَ أن جمعيةَ العلماء لم تسكُت عن الإلحاد، بل هاجمته في أمنَع معاقله، ونازلته في أضيق ميادينِه.

كما فاته أنَّ صرعى الإلحاد لا يغشَونَ المساجدَ، فما تأثير الخطب الجُمُعيَّة التي تُلقى على المصلين؟! وهل يداوَى المريض بتحذِير الأصحَّاء من المرَض أو أسباب المرض؟! ألا إنَّ العالم المرشِد كالطَّبيب، لا ينجَح في إنقاذِ المريض من الموتِ إلا بغشيانِ مواقع الموتِ ومباشرةِ جراثيم الموت.

موقف الجمعية من التبشير:

التبشيرُ بشكلِه الحاضِر نتيجةٌ من نتائج التعصُّب المسيحيِّ المسلَّح، ومولودٌ من مواليدِ القوّة الطاغية التي تسمِّي كلَّ ما ترضَى عنه من الأعمال المنكرة: حرّيَّة دين، أو حرّيَّة فكر، أو حرّيَّة تجارة، وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكلٍ كهنوتيّ، دفعته أولًا ليكون رائدَها في الفتح وقائدها إلى الاستعمار،

وأمدَّته بالمعونة والحماية، والصيانة والرعاية، فمدَّ أشطانه، وأصبَحت جميعُ الأوطان أوطانَه، حتى إذا صاح صائحٌ بالويل، أو صرخ مستغِيث بالليل، قالت السياسة: اسكُت فعمَل التبشير مِن عَملي، هو حرٌّ وأنا حاميَة الحرّية، وهو (إنسانيٌّ) وأنا منقِذة الإنسانيَّة.

وهذا التبشير المسيحي (الإنسانيّ) يرى أنَّ أعدى عدوٍّ له المصلحون المسلمون؛ لأنهم يدعون إلى الإسلام النقيّ، والإسلامُ النقيُّ لا مطمع للتبشير في طرقِ حماه، وما عَهدُنا بالشيخ رشيد رضا –رضي الله عنه– ومنازلاته للمبشرين ومناظراته للمبشرين ببعيد.

وضَعَ أساسَ التبشير في الجزائر الكردينال لافيجري، وأسَّس مراكزَه المهمَّة، ثم أتمَّت الجمعيات التبشيرية ما بدأ بهِ، وهي جمعيَّات قويَّة يمدُّها الأغنياء من المسيحيين (المتسامحين) بالملايين من المال، ويمدُّها رجال الكهنوت ونساؤه بالأعمال، وتمدُّها الحكومات (اللادينيَّة) بالمعونة والتأييد.

وقد راعت هذه الجمعيَّات في اختيارِ المراكز نفسيَّةَ السكان وحالَة المعيشة، ومِن أهم المراكز مركزُ وَرقلة[1] في الجنوب الجزائري، حيث يكثر طروق المجاعَات، ومركز بني إسماعيل[2] قرب بجاية، ومركز إيغيل علي، ومراكز زواوة.

ولقد كان من المعقولِ أن يثمرَ التبشير في القطرِ الجزائريّ، ويأتي بنتائج أكثرَ مما يأتي به في الأقطار الأخرى لعدة اعتبارات، أولًا: تقادم عهده، وثانيًا: صولة الاستعمار الذي يحميه، ثالثًا: فشوّ الجهل والأمية والفقر في الأمة التي هي فريسة التبشير، رابعًا: انتشار الطرقية التي هي ظئر التبشير وكافِلَته والممهِّدة له حسًّا ومعنى، وإن جهِل هذا قومٌ فعَدُّوا من حسناتها مقاوَمةَ التبشير، خامسًا: قعود علماءِ الدين عن المقاومة وسكوتهم عن المعارضة قبل جمعية العلماء.

ولكن الواقع أن التبشير مع طولِ المدَّة واستكمال العدَّة لم يلقَ النجاحَ الذي يتناسب مع الجهود المبذولة فيه، والسببُ الأكبر في ذلك يرجِع إلى شيء واحدٍ هو تصلُّب الجزائريّ في دينه مهما بلَغت به العامِّيَّة والأمِّيَّة والفقر.

---

(١) ورقلة: مدينة في الصحراء الجزائرية، على بُعد ٨٢٠ كلم تقريبًا جنوب الجزائر العاصمة.

(٢) بني إسماعيل أو آيت سماعيل وإيغيل عليّ: بلدَتان من بلديَّات بجاية، شرق الجزائر العاصمة.

هذا كلُّه قبل وجودِ جمعية العلماء، فأمَّا بعد وجودها –وما وجودُها ببعيد العَهد– فإنَّ من برنامجها مقاومةَ التبشير بقدر المستطاع، وإلى الآن لم تتوفَّر لديها الوسائلُ الكافية لتنظيم مقاومة منتِجة، وأهمّ عنصر في هذا الباب هو المال، ورغمًا على ذلك فقد ارتفعت أصواتٌ حارَّة بمقاومة التبشير من جوّ جمعية العلماء في المحاضرات العامَّة والصحُف السيارة.

ولكنا نعتقد –كما هو الواقع– أنَّ الأقوال ليست هي السلاح الذي يحارَب به التبشير مهما كانت حارَّةً بليغة متينةَ الحجة، وقُصاراها التحذيرُ من الوقوع في أشراك المبشِّرين، وإنما السلاح الماضي الفتَّاك في هذا الميدان هو المال. ولعمري كيف تستطيع أن تقاومَ جمعياتٍ منظَّمةً، من ورائها أمَم غنيَّة تغدق عليها المالَ، مجهَّزة بالجيوش الوفيرة من الرهبان والراهبات والأطباء والممرِّضات، يوحِّد الجميعَ أخلاقٌ ممتازة من الصبر والثباتِ والإيمان الجازم بحُسن عاقبة ما وقَفوا أنفسَهم له.

ولو أنَّ عند أغنياءِ المسلمين بعضَ ما عند هؤلاء من سماحة اليد في سبيل الدين؛ لطوَوا هذا التبشيرَ الزائغ، ولنشروا الإسلام في أقطار الأرض كلِّها، وإنَّ دينهم ليأمرهم بهذا، ولكن أين هم من دينهم؟!

موقف الجمعية من بقية الرذائل:

لا نبالغُ إذا قلنا: إنَّ من بواكر النَّجاح الأولى التي جنَتها جمعيةُ العلماء إرجاعَ الغاوين من المسلمين إلى حظيرةِ الدين، ولا يُحصى عددُ الذين تأثَّروا بمواعظها، فأصبحوا يحافظون على الصلوات بشروطها الحسية والمعنوية، ولا عدَد الذين هجروا أم الخبائث الخمر، بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسةً بارزة، ضجَّ لها تُجَّار الخمر، وتنادى بائِعوها بالويل والثبور، وتعالت أصواتُهم بالتذمُّر، كما تعالت أصواتُ مشائخ الزوايا وسدنةِ القبور.

وبالجملة، فقد وقفت الجمعية من جميع الرذائل المتفشِّية في الأمة الجزائرية –من خمر وفجور، ومسارعة في الأيمان الفاجرة، وترك صلاة، وشهادة زور– موقفَ الخصمِ الجبَّار، وحملت عليها –وما زالت تحمل– حملاتٍ صادقةً، شكرها لها المنصِفون وإن قلَّل من شأنها المتعسِّفون.

* * *